العرب
الأحد 2021/09/19
السنة 44 العدد 12184

الأغنية الشعبية ابنة الفلسفة

الحكمة والدهشة والتساؤل سمات الفلسفة التي تأخذها الأغاني

ترتبط الفلسفة بالأغاني كما ترتبط بالشعر والرواية والفيلم والكثير من مظاهر الحياة، الفنية وغير الفنية، غير أن الملاحظ أن الفلسفة ترتبط، في الغالب، بالكوميديا أكثر من التراجيديا، وبالشر أكثر من الخير، وبالشعبي أكثر من العاطفي والوطني. ربما لأن القسمة الثنائية التي ذكرناها تفصل بين ما يستدعي التفكير وما يستدعي العاطفة، وأن الفصل ليس حادا، والأمثلة ليست منضبطة، وإنما نوردها على سبيل التقريب. من هذا المنطلق، اخترنا التحدث عن علاقة الفلسفة بالأغنية الشعبية تحديدا من بين الأنواع الأخرى من الأغاني، ومن نفس المنطلق لن نقتصر على الأغاني الشعبية فقط، ولكننا سوف نستعين بالأغاني العاطفية كلما دعت الحاجة إلى توصيل فكرة أو تأكيد أخرى.

الأغاني فكر قبل المشاعر (لوحة للفنان تحسين الزيدي)

ماهر عبدالمحسن
ناقد مصري

في الحقيقة إن تناولنا للأغنية الشعبية إنما يأتي في سياق بحثنا عما هو فلسفي في الحياة مقابل بحثنا، في مقالات أخرى، عما هو حياتي في الفلسفة. وبهذا الاعتبار فإننا سنحاول التوقف عند بعض الأغاني الفلسفية الصريحة، وهي قليلة، كما سنتوقف عند البعض الآخر من الأغاني التي قد لا تكون فلسفية بالمعنى الدقيق، لكنها تنطوي على معان أو أبعاد فلسفية، وهي كثيرة.

وفي كل الأحوال، فإننا نهدف إلى اكتشاف سبل جديدة للتذوق تساعد المستمع على تحقيق فهم أكثر ومتعة أكبر من جراء استماعه للأغاني، خاصة أن الغناء يُعدّ من أكثر الفنون شعبية وانتشارا بين الناس.

> **الأغاني تعبير مباشر وعميق عن الحياة والإنسان، والفلسفة، خلافا لما هو شائع، لا تنفصل عن هموم الإنسان وحياته**

ولكي نضع أيدينا على الأبعاد الفلسفية في الأغنية، فينبغي ابتداءً أن نفهم ما تعنيه كلمة "فلسفة". الفلسفة في الحقيقة، ودون الدخول في تعقيدات اصطلاحية، لها عدة تعريفات يمكن من خلال تبسيطها تحديد مجموعة من العلامات التي تجعل المستمع، غير المتخصص، يستطيع أن يلف إلى العالم الفكري للأغنية، كما يمكنه بعد ذلك، ومن خلال المران، أن يميز بين ما هو فلسفي وما هو غير فلسفي في الأغنية، وأن يمتلك الأداة النظرية التي تمكّنه من مواجهة تيار الإسفاف الذي تعيشه الأغنية هذه الأيام.

وبهذا المعنى، يمكننا أن نقول إذا كانت الفلسفة، وفقا لتعريفاتها، هي محبة الحكمة، هي العلم بالكلي، هي البحث عن العلل البعيدة، هي الدهشة، هي فن التساؤل، فيتحتم علينا أن نبحث في الأغنية عن واحد، أو أكثر، من هذه العناصر: الحكمة، الرؤية الشمولية، القضايا الكبرى، الدهشة، التساؤل.

الحكمة والأصالة

الأغاني الشعبية، لأنها تعتمد كثيرا على الأمثال والمأثورات الشعبية، فهي تزخر بالكثير من الحكم خاصة في فن الموال، ويتبدى ذلك بوضوح في أغاني محمد العزبي ومحمد طه. فيقول العزبي في واحد من مواويله "أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل. وأيام ننام على الفراش وأيام ننام في الطل. وأيام بتحكم على الأصيل ينزل". وهي كلمات تعبّر عن تأمل الشاعر في أحوال الدنيا وتقلبات الزمن، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأصيل الذي جارت عليه الدنيا وتعرّض للمذلة بعد أن كان يحيا في عزة وكرامة. وتأتي الحكمة في نهاية الموال على لسان حكيم يلجأ إليه الشاعر، فيقول "أنا رحت لشيخ عالم في الهموم. رمى الكتاب من يمينه والتفت قال لي من عاشر الندل بعد الغندرة ينزل".

وهي حكمة نظرية أخذها الشاعر من عالم نقلها من الكتب، تفسر المواقف التي تبدو متناقضة في عين الشاعر وتكسبه فهما أعمق للأمور بحيث تكون بمثابة الدرس لما هو آت، غير أن الحكمة العملية التي تضع مبادئ أخلاقية محددة للسلوك تأتي، غالبا، في مواويل محمد طه الذي يغني "أبويا نصحني وقال لي امشي على قدك. وفصل التوب يكون مسبوك على قدك. وإن شيّلوك حمل شيل الحمل على قدك".

ويُلاحظ أن الحكمة تأتي، غالبا، من شخص آخر يتخيله الشاعر، يملك المعرفة الأصيل من الخسيس كما في "على الأصل دوّر"، وهي نزعة لا تخلو من عنصرية مضمرة ومغلفة بروح أخلاقية، في حين استخدمها شاعر "راعي ضميرك" للتأكيد على مفهوم المساواة بين الناس في المقطع الذي يقول "كلنا في الأصل ولاد تسعة". وفي أغنية أخرى لبهاء سلطان "محدش يقول" نجد نفس التأكيد على المساواة عندما يغني "محدش يقول أنا بعت دول وخاصمت دول.. أو ضد دول.. عشان مش أصول نعيش بينا بعد ونرمي على بعض الحمول.. مين فينا مبيغلطش أو مفهوش عيوب". فتعبير "الأصول" يأتي هنا كمعيار أخلاقي يقف ضد العداوة والكراهية والفرقة بين الناس.

الرؤية الشمولية في الأغاني الشعبية تتجاوز علاقة الإنسان بالإنسان في تجربة خاصة ومحددة، لتمتد إلى علاقة الإنسان بالعالم وبالحياة وبالوجود. وهذا النوع من التجارب الإنسانية عندما يتم التعبير عنه في أغنية، فإن الشاعر غالبا ما يستخدم كلمات ذات معان كلية من قبيل "الزمن"، "الحياة"، "الدنيا"، "النصيب"، "الموت". ومن أبرز الأغنيات التي يمكن أن نرى فيها هذا الموقف الوجودي أغنية مدحت صالح "كوكب تاني"، التي كتب كلماتها مدحت الجمال، وفيها يقول "رافضك يا زماني يا أواني يا مكاني، أنا عايز أعيش في كوكب تاني.. فيه عالم تاني، فيه لسة أماني، فيه الإنسان لسه إنسان عايش للتّاني".

وواضح أن الشاعر هنا يشعر بالاغتراب تجاه العالم الذي يعيش فيه. وهو شعور لا يرتبط بمكان معين، وإنما بالكوكب كله، حتى أنه يتطلع إلى الفرار من العالم برمته والالتجاء إلى كوكب آخر يتوقع أن يعثر فيه على القيم الإنسانية المفقودة في عالمه الأناني.

والشعور بالاغتراب تجربة وجودية تعبّر، في العموم، عن شعور الإنسان بالانفصال عن العالم المحيط به لعدم قدرته على التواصل مع الناس والمجتمع الذي يعيش فيه، غير أن الشاعر هنا يشعر بنوع من الاغتراب الداخلي، اغتراب ناجم عن انفصاله عن نفسه وفقدانه للهوية، فيقول "في سد منيع عالي وفظيع، بيني وبين نفسي، بين روحي ورسمي، بين يومي وأمسي".

ويعبّر حسن الأسمر عن تجربة مشابهة في أغنية "توهان". فالتوهان شكل من أشكال الاغتراب والانفصال عن العالم، في المفهوم الشعبي، والضياع في العالم يأتي من ضبابية الرؤية، وفي هذا المعنى يقول الشاعر "توهان، توهان، توهان.. عالم مليان دخان.. وقلوبنا يا خلق حزينة من القسوة تدوب دوبان".

والحقيقة أن المعاناة التي يلقاها الشاعر أو الإنسان عموما في هذا الزمن إنما تأتي من كون الدنيا غير أمينة وغير رحيمة بالناس، وأن الزمن في هذه الدنيا لديه من القسوة ومن الجفاء ما يجعله غير قادر على الشعور بمعاناة البشر، ويمكننا أن نلمس ذلك في هذه الكلمات المعبّرة "تايهين والدنيا بتلعب بالخلق وكل الناس.. تايهين وقلوبها بتتعب وزمانها ما هوش حساس".

وخلافا لشاعر "كوكب تاني"، لا يبحث شاعر "توهان" عن كوكب ثان يفر إليه، ولا يرغب في إقصاء هذا العالم بحثا عن عالم أفضل، لكنه يسعى إلى نوع من التصالح، فيطلب من الدنيا أن ترخي قبضتها عنه وتمنحه شيئا من الفرح بعد طول حزن، وقدرا من الأمل بعد أن خيم اليأس، فيختم أغنيته قائلا "عايزينك مرة تغني ونلاقي البال متهني.. ونقول للفرحة استني.. وتجينا على العنوان".

وفي علاقة الإنسان بالزمن تكمن التجربة الأكبر مع الوجود، لأنها تجربة فردية داخلية، يقف فيها الإنسان أمام نفسه، محاولا رصد موقعه على خارطة الحياة. وهي لحظة نفسية تأملية، أكثر من كونها لحظة تفكير حسابية، يستعين فيها الإنسان بالحاضر والذكريات حتى يمكنه استيعاب حجم التغير الذي وقع عليه وعلى العالم من حوله.

وفي هذا السياق، تأتي أغنية عبدالباسط حمودة، للشاعر أمل الطائر "أنا مش عارفني" باعتبارها التعبير الأبرز لهذه الفكرة، حيث يقول في مطلع الأغنية "أنا مش عارفني.. أنا تهت مني.. أنا مش أنا.. لا دي ملامحي.. ولا شكلي شكلي.. ولا ده أنا".

ويمكننا أن نلحظ ذلك في أغنية وليد توفيق happy birthday to you المعروفة بـ"انزل يا جميل في الساحة"، والتي كتب كلماتها عبدالرحيم منصور. فبالرغم من أن الأغنية عاطفية ومليئة بالمعاني الرومانسية الرقيقة، المعبرة عن الفرح والإقبال على الحياة، خاصة في مطلعها الذي يقول "انزل يا جميل في الساحة.. واتمختر كده بالراحة.. أنا أد عينيك مع إني نظرة عينيك دبّاحة"، إلا أن الشاعر يأبى إلا أن يضمّن الأغنية بعدا فلسفيا تأمليا، ينطوي على فهم واع للحياة وأساليبها غير العادلة في معادلة الأخذ والعطاء. فالزمن يمر سريعا، دون أن يشعر به الإنسان، والمحصلة النهائية شعور عميق بالغبن من ناحية، ووحدة لا تنتهي من ناحية أخرى، فيقول الشاعر "يا وعدي على الأيام دي.. من غير ما نحس تعدي.. تاخد أكتر ما بتدي.. وأنا ويا الأيام وحدي".

وتنقلنا هذه الأغنية إلى ملمح آخر من الملامح الفلسفية التي تزخر بها الأغاني الشعبية، وهو القضايا الكبرى أو المواقف الحدية مثل الميلاد والموت.

القضايا الكبرى

الملاحظ أن الأغاني الشعبية لم تول اهتماما كافيا بلحظتي الميلاد والموت قدر اهتمامها بلحظات الحياة ومفارقتها العجيبة التي تقع ما بين الميلاد والموت. وتأتي الأغاني العاطفية لتسدّ هذا الفراغ، وتقدم، ببراعة شديدة، تجارب رومانسية مؤلمة مضفورة بلحظات ميلاد فارقة.

لكل أغنية فكرة (لوحة للفنانة زينب جبوري)

وهي لحظات يتجاوز فيها الشاعر المعنى الإنساني الفردي لفكرة الميلاد، لتصير الأغنية تعبيرا عن ميلاد الحب أو ميلاد الجرح، ففي الأولى يغني عبدالحليم، من كلمات حسين السيد، "عقبالك يوم ميلادك لما تنول اللي شغل بالك يا قلبي"، وفي الأخيرة يغني هاني شاكر، من كلمات منصور الشادي "عدت سنة.. والليلة هاطفي شمعة الجرح القريب.. جرحي أنا".

وبالرغم من أننا إزاء صورة أدبية خالصة ربما تبعد عن الفلسفة بالمعنى الذي ذكرناه، إلا أن المقطع التالي يحمل قدرا كبيرا من التفلسف عندما يستحضر النصيب والقدر ليفسر بهما سر ارتباطه بالحبيب بالرغم من الجرح الذي سببه له، فيقول "لا الشوق يا قلبي بأمرنا.. ولا كان بإيدي أختار نصيبي.. يبقى خلاص مكتوب لنا رغم البعاد يفضل حبيبي".

وتصل المعاناة إلى ذروتها في قصيدة كامل الشناوي "عدت يا يوم مولدي" التي غناها فريد الأطرش.

وفيها لا يكتفي الشاعر باجترار الذكريات المؤلمة، أو تقديم تفسير ميتافيزيقي قدري لما ألمّ به من معاناة وما ينتظره في المستقبل من استمرار لهذه المعاناة، لكنه يحرص على تسجيل اعتراضه وتمرده على الحاضر القاسي الذي لا يرحم، فيعلن رفضه للحياة برمتها، راغبا في محو لحظة الميلاد باعتبارها لحظة تأسيسية للذات من ناحية، وللمصير المظلم الذي كان ينتظرها من ناحية أخرى، فيقول "ليت يا يوم مولدي.. كنت يوما بلا غد، ليت أني من الأزل.. لم أعش هذه الحياة، عشت فيها ولم أزل.. جاهلا أنها حياة، ليت أني من الأزل.. كنت روحا ولم أزل".

فالشاعر هنا لا يرفض العيش في الحياة فحسب، لكنه يتمنى لو كان قد ظل في عالم الروح السابق على الحياة. وكأن الحياة لا تملك حلولا لمعاناتها، وكأن العيش فيها، رغم مرارتها، لن يعني سوى المزيد من الشقاء.

وكما تكمن حكمة الحياة في واقعة الميلاد، تكمن أيضا وبنحو أكثر، في واقعة الموت. فكثيرا ما يتوقف شعراء العامية أمام حقيقة الموت الصادمة، كي يستخلصوا منها الحكمة من خلال رؤية كلية مفعمة بروح التفلسف، وكأن الحياة كانت تعمد إلى أن تسدل ستارا سميكا على حقيقتها الواضحة، بينما يأتي الموت ليرفع هذا الستار ويلقي بضوء مبهر وكاشف عن الحقائق التي ظلت خافية مدى عمر الإنسان، فإذا كانت الحياة مسرحا كبيرا والميلاد يمثل رفع الستار للمرة الأولى ليكشف عن بداية الفعل الدرامي، فإن الموت لا يأتي كنهاية لأحداث الرواية، ولكن كلحظة كاشفة تمثل رفع الستار الذي يجيء بعد نهاية الدراما، حيث يكشف الممثلون عن شخصياتهم الحقيقية، ويصطفون لتحية الجمهور.

وبهذا المعنى، يمكن أن نفهم أغنية طارق الشيخ "الكل راح" عندما يعبّر الشاعر عن عدالة الموت التي لا تميز بين البشر، سواء القوي أو الضعيف، الظالم أو المظلوم، فيغني "فيهم اللي كان فاكر هيعيش طول الحياة.. فيهم اللي كان قادر وبيظلم خلق الله.. فيهم اللي عاش مغلوب على أمره يا ولداه.. الكل راح ومحدش خد حاجة معاه".

الصفحة 10ومقال مخلص الصغير في ص12
ينشران كاملين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية